من وحى الألم

تحت رُواق اللَّيْل !

لشاعر الريف محمود حسن اسماعيل

الطالب بدار العلوم

فَزِعَتْ للظلام روحى كما يَفْـــزَعُ أعشَى لومضَةٍ من ضِياءِ
فحبَسْتُ الخيالَ حتى إذا ما ضجَّ فى خاطرى من البُرَحاءِ
هربَتْ أدمعى إلى ساحة اللَّيْـــلِ تَهاوَى فى الدُّجيَة الظَّلماءِ
ما لها فى السَّنا مَلاذٌ ولا فى فَجَّة النُّور خفقَة من رجاءِ
ساقها فى الظلام حادٍ من الهَمِّ — بلا رَيْثَةٍ ولا إبطاءِ
مُستَحَثُّ الخطى، حَدوبٌ على القلـــبِ يُزَجِّيه فى رحاب الفضاءِ
فى عُباب الدّجى يَهيمُ بِمَسْرا هُ فتُضويه غيْبَةُ الميناءِ
ليْتَ مَلاَّحىَ الضَّلولَ هَدَتْهُ بارقات الهدى لشَطِّ الفناءِ
طال فى الليل سَبْحُهُ وهْوَ حيْرا نُ شَجَتْهُ مضاضَةُ الإعياءِ
وطحَتْ بالشراع هبّات ريحٍ عاصفاتٍ من زَعْزَعٍ نكباءِ
إيهِ يا ليل قُدّ لى من حَواشيـــكَ حجابا وناجِنى فى خفاءِ
لاتذِع شَجْوِىَ الكئيبَ ولاتكْ شِفْ دموعى لأعيُنِ الرُّقَباءِ
ودع النَّسْمَةَ العليـــلة تحسو من فم الزهر بلسماً للشفاءِ
ودع الكونَ هاجعاً، ودعِ النا سَ نشاوَى فى غَمْرَة النَّعماءِ
خلِّنى للدموع وحدى أُناجيـــها وحيدا فى العُزلة السَّوْداءِ
أنا من كأسها شربتُ صَبيًّا خَمْرَةً سُلسِلَتْ من البأساءِ
عُصِرَتْ من مطارف الألم الدّا — وِى بقلبى وعُتِّقَتْ فى دمائى

تَخِذَتْ جامَها المحاجرَ والسا قيَ همًّا يوجُّ فى أحشائى
هى أشهى إلى عيونى من الثو ر ، وأبهى من لمحة الأنداءِ
هات يا ليل قطرها فهى حيرَى كتمتْ برَّحها من الكبرياءِ
سبقتْ مطلعَ الندى لكَ .. دعها تتهاوَى للسُّخرة الفيحاءِ
ربَّما أطلعتْ بظلِّكَ فجراً شعشعتْ منه هالة فى السماءِ
ربَّما روَّتْ الأزاهرَ فى المرْ ج فماستْ فى الربوة الغنَّاءِ
ربَّما فجَّرتْ بقلبك نبعاً وردُهُ مُنيَةُ القلوب الظِّماءِ
همسُها فى الجفون أصداء نايٍ بلغتْ شدوَهُ رياح المساءِ
مزهَرٌ للعيون أوتارُه الهُدْ بُ وأنغامه رنين البكاءِ
صامت فى الظلام ألهم قلبى من معانيه عبقريَّ الغناءِ
لا منى فى هواه خالٍ من الهمِّ — بليد الفؤاد جمُّ الغباءِ
رُدَّ عنى يا ليل دعواه إنِّى كدْتُ من لومه أحطِّم نائى
لُغةُ الدمع فى سماءٍ من العِصْمة عزَّتْ حصافةَ الأغبياءِ
حبستْ وحيَها عن العقل إلاَّ حين تسمو ملاحن الشعراءِ !

* * *

هات يا ليل من أغانيكَ وامْلأْ نغمى بالخواطر الهوجاءِ
أنا فى غارك المغلَّفِ بالظُّلْـ ـمةِ أسيانُ مُثقلٌ بالشقاءِ
حكمة فى دجاكَ أنكرها العقـ ـلُ فلاذتْ بالصَّمت والإنزواءِ
سمعتْ أُرْغُنَ الليالى فهامت من صداه بنغمةٍ خرساءِ
هوَّمتْ فى الفؤاد تُزجيه للحَيْـ ـرةِ والسحر والأسى والعَناءِ
واسِ يا ليل جُرْحَه فلقد طا ل أساه بربقة الأدواءِ
أنتَ بحر الحياة يا ليل كم فيـ ـك أهاويل من صروف القضاءِ !
كم غريق بيمِّك الأسود الصا خب آدتْهُ صرعة الأنواءِ

صفعَتْهُ عنيفةٌ من كفوف الدَّ ـ ـ هر فانحطَّ فى مهاوى البلاءِ !
وسبوح على متونكَ مجدُو د تخطَّته هيجَةُ الدَّأماءِ
قد ضممتَ الأكوان تحت جناحيـ ـكَ سواءً فى جُنح هذا العَماءِ
هوَ ذا الكوخ رازح تحت أثقا لِكَ وهنانُ كالضَّرير المُساءِ
حاكَ من سِدْلِكَ الكحيل غطاءً وارتمَى جاثياً ببَطن العَراءِ
عابر فى حِماكَ شفَّتْ مَطاويـ ـهِ شجونُ السُّرَى وبَرْحُ الخَفاءِ
لم يَجدْ راحماً يواسيه فى البَلْـ ـوَى ويُنسيهِ مَضَّةَ الإنضاءِ
فتغافَى من الضَّنَى يَنشُد الرَّ حمةَ والصفوَ فى الخيال النَّائى
رجفَتْ شَمعة بجنبيْه تهفو فى دُجاه كالمُقْلة العَمْشاءِ
خنقَ الليلُ نورَها خنْقَةَ البُؤْ سِ لأرواح أهلها التعساءِ
فرنَتْ للقصور غيْرَى شجاها أخيَلٌ من لواحظ الكهرباءِ
سادرٌ فى البُروج كادَ من الفتْـ ـنةِ يرقى إلى بروج السَّماءِ
لقىَ الليلُ حتفه حين وافا ه طريداً مُعرَّساً فى الخَلاءِ
ثوَى فى التخوم كالهمِّ ألقى رَحْلَهُ صوبَ هالةٍ من صفاءِ
ودنا الفجر فى غلائله البيـ ـض شفيفَ الإهاب نضرَ الرُّواءِ
يسكب النور فى العيون... ولكنْ أين الروح ومضَة من سناءِ ؟!
أين فجرُ الجنان يا فجر ؟ هَدْهِدْ نغَماتى ، ولا تضيِّع ندائى . .

محمود حسن اسماعيل